وليد غلمية: موسيقاه بنت الأرض والعلم

Walid Gholmieh: His music is the daughter of the earth and science

د. ليلى خليل علي/ وزارة التربية والتعليم العالي/ لبنان

Dr. Leila Khalil ALI / Ministry of Education and Higher Education / Lebanon

تمهيد

يولد الطفل على الفطرة فتتعهده التنشئة الاجتماعية بمؤسساتها المختلفة بالتربية وتُشكّله وفقًا لمكوّنات الثقافة المحلّيّة التي تتوحّد في شخصيته فتوجّه سلوكه وتفكيره. وهكذا المبدعون ينهلون من بيئاتهم وثقافاتهم فيحوّلونها إبداعاتٍ يحملونها إلى مشارق الأرض ومغاربها.

وهكذا هو وليد غلمية الذي نهل من ثقافة الأرض موسيقى شعبية حملها إلى العالم واستقى من ثقافة العالم نوتات سيمفونية شكّلها مقطوعات زرعها في واحات الموسيقى الشرقية.

سوف نتناول في هذه الورقة البحثية "وليد غلمية –الموسيقار اللبناني"، من خلال ما قدّمه للأغنية الشعبية اللبنانية وما قدّمه للموسيقى الشرقية عبر الأعمال السيمفونية الكلاسيكية، حيث رافقت موسيقاه الشعبية انطلاقة الأغنية اللبنانية وانتشارها، وما زالت ترافق كلّ مناسبات الفرح الشعبي في القرى اللبنانية، ومنها الأعراس، والأعياد، والمهرجانات وغيرها، وتترافق مع خطوات الدبكة التقليدية والمستحدثة من جيلٍ إلى جيل. أمّا السيمفونيات فلقد أثْرت المكتبة الموسيقية العربية بعددٍ من المقطوعات التي حملت معها روح الكلاسيكية الغربية بنكهة شرقية تراثية.

ترتكز هذه الورقة البحثية على المنهج الوصفي، وتنتظم حول عنوانين: الموسيقى الشعبية عند وليد غلمية: تاريخ ومسيرة وتجديد؛ الموسيقى الكلاسيكية عند وليد غلمية: رؤية وغنى من روح التراث؛ وتنتهي بخلاصة وتوصيات.

أوّلًا: الموسيقى الشعبية عند وليد غلمية: تاريخ ومسيرة

١-وليد غلمية: سيرة ومسيرة

ولد وليد غلمية عام ١٩٣٤ في بلدة جديدة مرجعيون، الجنوبية الحدودية، والتي يحدّها نهران، الحاصباني من الشرق والليطاني من الغرب، وتحيط بها غابات الصنوبر وحقول القمح، وتنتشر فيها كروم العنب والتين وبساتين الزيتون، وفي سهلها، المرج، جميع أنواع الخضار وأجودها. وفيها ساحة من أيام العثمانيين، تُحيط فيها وتنتشر نحو أعالي تلالها بيوت القرميد الحجرية التراثية بواجهاتها وأدراجها الأرستقراطية.

وفي جديدة مرجعيون التعليم الخاص الإرسالي والوطني، باللغتين الفرنسية والإنكليزية، الذي استقطب كل أبناء النخب والمقتدرين من الطبقة المتوسطة ليتعلّموا ويتخرّجوا من مدارسها التي درس، وليد غلمية، في إحداها، الكلّية الوطنية، وهي لآل غلمية. وفيها سوق الجمعة الشعبي الذي يحييه الباعة والمواطنون من كلّ القطاع الشرقي في الجنوب.

في هذه البيئة المتنوّرة والحضارية، وبين أحضان هذه الطبيعة الغنيّة بمكوّناتها الملهمة، نشأ وتعلّم وليد غلمية. وفي هذا الصدد يقول: "أعيش جديدة مرجعيون مع جبل حرمون وكروم إبل وسهل الخيام، مع الناس والطيور والشروق والشتاء والثلج والخريف". لقد تكوّنت عنده في هذه البلدة الحرية بأرفع درجاتها، وكما يقول فإنّ أهميّة الحريّة في كونها تضع الإنسان في موقع يُطلّ فيه على الدنيا بأسرها" (لطيف، ٢٠١١).

وفي إحدى المقابلات يقول: "ولدتُ في "جديدة مرجعيون" المعروف حبها للثقافة والعلم، في بيت كان من أهم موجوداته الكتاب والمجلة والغرامفون. والدي كان تاجرًا ويجلب بعض الآلات الموسيقية من ضمن ما يجلبه، وعيتُ على مندولين وكمنجة في البيت. توفّي الوالد باكرًا، كنت في السادسة من عمري ويقولون إنني كنت "شيطاناً". ويضيف، "الوالدة، رحمها الله، قالت إنها، كي تعيد إليّ هدوئي وسكينتي، كانت تشغّل لي أسطوانة

على الغرامفون فأقف ساكنًا أمام الاسطوانة بلا حراك". تعلّق وليد بآلتي الوالد (الكمنجة والمندولين) وأغرتاه على العزف، وساعدته عمّته عازفة المندولين في معرفة حركات المفاتيح الأولى. ويُتابع: "بعمر ست سنوات بدأتُ دراسة الموسيقى مع مبشّر سكن في بلدتنا "جديدة مرجعيون"، وفي السابعة من عمري كنت أقرأ النوتات الموسيقية (طه، سحر، ٢٠١١).

وفي سنة ١٩٥٨، انتقل إلى الجامعة الأميركية في بيروت وانتسب إلى الكونسرفتوار الوطني. وكان حلمه متابعة الدروس الموسيقية على آلة الكمنجة، وللغاية حضّر كونشرتو لـ«بيتهوفن» من أجل تقديمه في الامتحان، لكنّ كسرًا في الإصبع الوسطى في يده اليسرى منعه من مواصلة حلمه في احتراف العزف على هذه الآلة الساحرة الحنون. كانت هذه الحادثة محطة مفصلية في مسار حياة الدكتور وليد غلمية، إذ تحوّل الحلم من إتقان العزف على آلة الكمان إلى درس التأليف الموسيقي على يد الأساتذة الكبار: وولدرج (الإنكليزي)، وتوفيق سكّر والأب يوسف الخوري (منصور، تريز، ٢٠١١).

سافر غلمية إلى الولايات المتحدة حيث نال الماجستير في قيادة الأوركسترا من جامعة كنساس، كذلك الماجستير في التأليف الموسيقي (١٩٧٠)، ومن ثم الدكتوراه في العلوم الموسيقية من الجامعة نفسها (٢٠٠٢)، وهو في الرابعة والستين من عمره، وكان عنوان أطروحته: «التأليف الموسيقي في الشرق الأوسط منذ ما قبل المسيح حتى اليوم». وفي ما بعد حاضر في الجامعة التي درس فيها، وأسّس فيها دائرة الموسيقى العربية. له العديد من الكتابات والنشاطات الثقافية والفنية، وكان من ضمن المساهمين بتأسيس مجلة الحداثة اللبنانية مع رئيس تحريرها وصاحبها فرحان صالح في العام ١٩٩٤. كذلك كان عضوًا في المجامع العلمية الموسيقية العربية والأجنبية والدولية.

توفّي وليد غلمية في السابع من حزيران ٢٠١١ عن عمرٍ يناهز ٧٣ عامًا بعد مسار حافل لأكثر من نصف قرن في مجال الإبداع الموسيقي تاركًا وراءه إرثًا موسيقيًا حضاريًا ستنهل منه الأجيال القادمة. إلا أنّه لم يُحقّق أحلامه بإنشاء دارٍ للأوبرا في بيروت.

٢-المعهد الموسيقي الوطني

تسلّم وليد غلمية العام ١٩٩١ مسؤولية رئاسة «المعهد الوطني العالي للموسيقى» (الكونسرفتوار)، وبقي رئيسه حتى وفاته عام ٢٠١١.

في مقابلة خاصة بهذا البحث، تقول الدكتورة هبة القواص، رئيسة «المعهد الوطني العالي للموسيقى» (الكونسرفتوار)، الدكتور وليد غلمية هو من أعاد الحياة إلى المعهد، بعد الحرب الأهلية، وجعله مؤسسة تُضاهي المعاهد الموسيقية الكبرى، فهو أخرج الكونسرفتوار من منظومة الدولة الروتينية، وجعل العمل فيه كالقطاع الخاص. هذا بالإضافة إلى أنّ وليد غلمية إنسان مُميّز، جمع علم الموسيقى بالإدارة بالشخصية القيادية، وأعطى من نفسه للمعهد. لقد رافقته عن قرب في هذه المرحلة، حيث تواصل مع الرئيس رفيق الحريري الذي دعم كل حاجات ونشاطات المعهد، ووافق على عضوية لجنة الحكم في برنامج "استديو الفن" مُقابل إعادة تجهيز المعهد. هذا على المستوى المادي، أمّا على المستوى الموسيقي في المعهد، فهو السبّاق في وضع مناهج أساسية للموسيقى الشرق-عربية، مناهج لم تكن موجودة لدراسة العود والقانون ومناهج للآلات الإيقاعية، كل نقرة على الدف هي نوتة، علي الخطيب، عازف دف، أدهش الأوروبيين بعزفه الدف على النوتات، كل حركة أصبع مكتوبة، وهذه نقلة كبيرة، وتحديث كامل في تدريس العزف (القواص، ٢٠٢٤).

ويقول غلمية في هذا الإطار «جمعتُ أساتذة الإيقاع، وبينهم أهمّ عازف دفّ وهو علي الخطيب، وقلت: «اعزفوا». ورحنا نسجّل كل ضربة وحركة، وبحثنا عن أسماء معروفة للأصوات والحركات ودوّنّاها، حتى خلقنا

منهجًا، من الألف إلى الياء، طبعناه كتبًا ووزّعناها على أكاديميات عربية. وقد كتب شربل روحانا، وكان أستاذًا هنا، أوّل منهج لآلة العود» (منصور، تريز، ٢٠١١). بالنسبة للعود الذي وضع له منهجًا أوّلًا جميل بشير، يقول غلمية "إنّ منهج جميل بشير للعود هو لمرحلة متقدمة يعني أنّ الطالب يجب أن يكون درس العود لسنة أو أكثر كي يبدأ بمنهج جميل بشير، فيما نحن وضعنا منهجًا يبدأ به الطالب من الصفر وصولاً إلى تخرجه والتوصّل لمهارة معيّنة" (طه، سحر، ٢٠١١).

لقد انتشل غلمية صرح المعهد الموسيقي الوطني الجديد في لبنان من بين الحطام، وأعاده الى واجهة العمل الثقافي الحضاري، كواحدة من أهم مؤسسات العمل الثقافي الوطني الحديث (علم الدين، غسان، ٢٠١٢). وفي هذا الصدد، وفي حديثٍ صحفي عام ٢٠١٠، يتناول وليد غلمية ما حقّقه في الكونسرفتوار فيقول: "حين استلمت المعهد الوطني كان عدد طلاب آلة القانون ثلاثة، اليوم هم أكثر من ستين. وطلاب العود قلة باتوا اليوم بالمئات، وكذلك الآلات الإيقاعية الشرقية وغيرها. فقط لدينا مشكلة في التوجّه نحو دراسة آلة الناي القصب، وقد أصدرتُ قرارًا بإعفاء أي طالب يرغب بدراسة الآلة، وذلك رغبةً في استمرار وجودها بين آلاتنا الشرقية، وبات العدد ربما عشرين طالبًا اليوم". هذا على مستوى تشجيع الدارسين للموسيقى، أمّا على مستوى الموسيقى ذاتها ومهمّة المعهد في تعليمها بشكل متقن فيقول:

"منذ استلامي المعهد وأنا أحاول التركيز على الإتقان، وعدم ترك الأمور على عواهنها وعلى فطريتها، وخاصة في دراسة الموسيقى الشرقية ، بل على الدارس أن يُتقن المناهج قبل ولوجه عالم المهنة وأن يكون حاملاً لثقافة وعلم وتقنيات الموسيقى مثل أي دارس للعلوم الغربية وأشدّد على الالتزام في أدق التفاصيل: التزام بالوقت والتمرين والملاحظات وروح الجماعة بعيدًا عن الفردية، وتشجيع الطلاب للعمل ضمن الفريق ضمن خُلقيات وقوانين المعهد، لذا نشهد اليوم أجيالاً من المتخرّجين متقنين ومحترفين وملتزمين". وعن التقاسيم التي يرفض

أن يؤدّيها الطالب قبل تخرّجه يقول: "كلّ التأليف الكبير يبدأ بالتقاسيم أو ما أسمّيه الارتجال، لكن البنائية فيه على قدر إمكانات العازف. الكونشرتو مثلًا، تقاسيم بتقنيات خطيرة جدًّا. والتقاسيم جزء من تراثنا، لكنّ التقنية تساهم في منح العازف تعبيرًا أكبر عن أفكاره، وإلا سوف تأتي التقاسيم منقوصة وغير مكتملة.

وعلى سبيل المثال، يُتابع، "آلة القانون فيها اثنان وسبعون وترًا فهل من المعقول العزف على ست أوتار فقط وبأصبعين وأنا عندي عشر أصابع؟ علمًا أنّ آلاتنا الموسيقية ذات صوت وإمكانات نبيلة لكن طريقة العزف هي التي تحطّ من قدرها وقيمتها". ويُضيف، "لا يمكن تعليم التقاسيم، إذا علّمنا التقاسيم مشكلة كبيرة نقع فيها وهي خسارة الإبداع الذاتي للعازف والإحساس الإنساني، وسوف يُقّدم الجميع نسخًا مطبوعة ومشوّهة. لانّ كلّ مؤلِّف سيفقد عمليّة التخيّل حين يبدأ بكتابة معزوفته، فالمؤلف السمفوني يبدأ أيضًا بتخيّل النوتات ارتجاليًا إلى أن يكتبها في عملية بنائية" (طه، سحر، ٢٠١١).

ومن إنجازات وليد غلمية، تأسيس الأوركسترا الفلهارمونية اللبنانية التي كانت من أولى الأوركسترات في المنطقة العربية، بعد مصر، وكذلك الأوركسترا الوطنية اللبنانية للموسيقى الشرق-عربية التي تكرّم أوركستراليًا المبدعين اللبنانيين والعرب على الصعيد الموسيقي كفريد الأطرش وأم كلثوم والرحابنة وصباح ونصري شمس الدين وغيرهم. ولقد أفسح غلمية كذلك المجال أمام مؤلفات الموسيقيين اللبنانيين الشباب لتأخذ طريقها إلى جماهير الصالات، عبر عزفها في الأوركسترا الشرقية اللبنانية، إضافة إلى القطع الموسيقية من مؤلّفين لبنانيين كانت طي الأدراج، وهو أبرزها في الأمسيات الموسيقية إلى جانب أشهر المقطوعات التي كتبها مؤلفون من العالم العربي. إضافة إلى تقديم مؤلفاته المبنية على أسسٍ فلكلورية وتوزيعات هرمونية وإيقاعية شعبية تكاد تقترب من أسلوب المجري بيلا بارتوك ومواطنه زولتان كودالي في دراسة واستلهام الألحان الشعبية والفلكلورية المحلّية

وصياغتها ضمن أساليب معاصرة حداثوية في تراكيب كانت تلهب حماس الجمهور بشكل دائم (طه، سحر، ٢٠١١)

لقد جعل وليد غلمية من الكونسرفتوار مؤسسة عُليا للتعليم العالي: وسَّع فروعه، وضَع مناهجه، أسس أوركسترا فلهارمونية وأوركسترا شرق-عربية، وحقق فيه أَسمى ما يمكن للمؤَلِّف الموسيقي أَن يحلم به: فرقة تعزف أَعماله.

٣-موسيقى وليد غلمية في المسرح والمسرح الغنائي والراقص

ارتبط اسم وليد غلمية ولأكثر من عقدين من الزمن بالمهرجانات ومنها بيبلوس، بعلبك، الأرز... وغيرها، حيث قدّم أجمل الأغاني الشعبية التي تنبع موسيقاها وترتبط بالأرض والتراث بقالب مجدّد.

وعن التجديد الذي قدّمه للأغنية الشعبية، تقول القوّاص، أنّ التجديد يُعبّر عن شخصية المؤلّف، ووليد غلمية قدّم نفسه، التي تأثّرت بالمنطقة، التي بدورها أثّرت على هويّة الموسيقى التي قدّمها سواء في الفولكلور أو في العمل السيمفوني، بقيت جديدة مرجعيون في هذا النفس الموسيقي الذي كتبه. وتتابع لتؤكّد أنّ وليد غلمية كتب نفسه، ونفسه هي الموروث التراثي الذي أخذه من جديدة مرجعيون، إذ بقي اللحن الفولكلوري للمنطقة ظاهرًا في كلّ أعماله وهو مختلف عن باقي المناطق في لبنان. كذلك هناك منبع آخر لموسيقاه هو الطقس البيزنطي، فأغنية "يا ساكن الليل" مثلًا التي غنتها فدوى عبيد مبنية على إيقاع ترنيمة "يا مريم".

أنا مؤمنة، تقول القوّاص، بوجود ترددات سمعية تعكس الأرض والمكان على الموسيقى منذ البدء، فالتتابع (frequence) التي تصدرها الأرض، وطبيعة النبات والشجر، يُسجّلها اللاوعي وتظهر في الموسيقى، وهذا ما تراكم عند وليد غلمية وبعدها ظهر المنتوج الموسيقي عنده. فالفاصل الموسيقي (interval)، والتتابع عنده يُعبّر عن المنطقة ويختلف عن باقي المناطق. المقام موجود، أمّا المزاج (mood) عنده فيُذكّرك دومًا بالتراث الجنوبي المرجعيوني سواء في الألحان الغنائية أو المقطوعات الموسيقية أو السيمفونيات.

ماذا قدّم وليد غلمية من جديد، تقول هبة القواص، التوزيع، الفاصل الموسيقي، الإيقاع المركّب، كلّها أبعاد جديدة في أعماله الموسيقية. لقد طوّل وليد غلمية الفاصل الموسيقي (interval) وهذا حداثة مع إنّ الإحساس بقي جنوبيًا، كذلك المتتاليات من الأصوات استطاع أن يبني عليها (harmony)، الإيقاع المركّب (complex) على البُعد الفولكلوري، بالإضافة إلى أنّ فن التوزيع البسيط كان جديدًا عنده، منذ أغنية "يسلم لِنا لبنان" عام ١٩٦٣ لصباح، قدّم تفاصيل في التوزيع لكلّ آلة. التوزيع الذي قام به يُظهر الجو الفولكلوري، يأخذك معه إلى عمق الجنوب، ففي مقطوعة مثل "مرجعيون" نسمع البلدة، نسمع الزيز والشجر والفضاء. والبُعد الأكبر السيمفوني نسمع فيه شرقيته ولبنانيته. عمل غلمية في التوزيع الموسيقي مجموعات سولو (solo)، ديو (duo)، و (triplet)، وظهر على سبيل المثال في مقطوعة "مرايا الحنين" لميخائيل نعيمة (القواص، ٢٠٢٤).

قدّم وليد غلمية الأغنية الوطنية الشعبية، إلى جانب الأغنية ذات العنفوان الشعبي، وأغنية الفرح الشعبي، بالإضافة إلى الأغنية العاطفية الشعبية، وفي كلّ هذه الألحان يأخذك إلى المود (Mood) الخاص بالأغنية فتعيشه معه كما أراد.

كانت بداياته في المسرح الغنائي مع روميو لحود، حيث وضْع موسيقى مسرحية «الشلال» وكان من أَلحانه أغنياتٌ لصباح، منها الأغنية الوطنية الشعبية: «يسلم لنا لبنان جنة أَمانينا» (شعر يونس الابن)، التي ترافقت مع الدبكة بخطواتها المستحدثة للمسرح، وما زالت هذه الأغنية من أجمل أغنيات الحب للبنان يصدح فيها صوت صباح في المهرجانات الشعبية حتى اليوم.

ومن روح التحدّي والعنفوان التي يعيشها اللبناني نتيجة الظروف الصعبة الأمنية والعسكرية التي تتالت عليه، ولدت ألحان أغاني العنفوان الشعبي التي تترافق دومًا مع الدبكة بخطواتها الحديثة الهدّارة، ومنها مثلًا "قلعة كبيرة وقلبها كبير" لصباح وهي لقلعة بعلبك حيث تقول "يللي تعدوا ع دارك تحطم قلبهن ع حجارك، وإنتِ

تشعي بين الناس وأرضِك حارسها الله"، ومنها أيضًا "وينك يا خيّال انزل" لسمير يزبك والتي يقول مطلعها "وينك يا خيّال انزل وخلّي السيف يشرقط نار، خيالك بيوقّع خيّال حصانك ملّا الساحة غبار..." ، ولا ننسى مثلًا "قالوا انطوى سيف البطل" لجوزيف عازار والتي يقول مطلعها "قالوا انطوى سيف البطل، قلنا الهوا شقلب جبل، ع تلالنا وع جبالنا وبكتابنا العز انكتب" مع هذا المطلع الجنائزي اجتمع الكلام والموسيقى وخطوات الدبكة لتبدو جميعها وكأنّها ترثي البطل.

ولوليد غلمية أرشيف غني بأغنيات الفرح الشعبي مع صباح ومع العديد من الأسماء اللامعة في ذلك الوقت. من هذه الأغنيات لصباح "مرحبا يا حبايب"، "زقفة زقفة يا شباب"، "مسيناكم مسونا"، "درجي دوسي دو باره". ومن أرشيف الأغنية الشعبية العاطفية لوليد غلمية نذكر: "يا مسافر وقّف عالدرب"، "شو بدّك أعمل قلّي"، "رجعنا بعد الغيبة رجعنا"، وجميعها لصباح. ومع عصام رجّي نذكر" قديش قضّينا سوا"، ومع فدوى عبيد "ميلي عَ ميّالك يا عين يا عين"... وغيرها الكثير. (الزيباوي، محمود، ٢٠١٦)

عمل وليد غلمية في المسرح مع المسرحيّين روجيه عساف، ويعقوب الشدراوي، وريمون جبارة، وميشال نبعة وغيرهم. ومن هذه المسرحيات "أَعرب ما يلي ١٩٧٠»، «ميخائيل نعيمة ١٩٧٨»، «جبران ١٩٨١»، و"الوطواط ١٩٨٣"، و«بلا لعب يا ولاد ١٩٩٢» (من إخراج يعقوب الشدراوي). "الستارة ١٩٧٣" لرضا كبريت وميشال نبعة، "شربل ١٩٧٧" (إخراج ريمون جبارة)، "الزنزلخت ١٩٦٥" (لعصام محفوظ).

كما أنّ لوليد غلمية في مجال الأوبريت أو المسرح الغنائي اللبناني، إرث كبير تمثّله في هذا الباب خمس وثلاثون مسرحية غنائية (منصور، تريز، ٢٠١١). فشارك أهم أعمدة المسرح الغنائي في لبنان، الرحابنة، روميو لحود، كركلا... من خلال ألحان غنائية ومقطوعات موسيقية.

شكّل ثنائيا فنيا مع روميو لحود من عام ١٩٦٣ إلى عام ١٩٧٠، وقدّم معه مهرجانات جبيل وبعلبك، وعلى مسرح فينيسيا استعراض "موال"، ثم "ميجانا، وبعدها "عتابا"، وقدّم فيها جميعًا أجمل الأغنيات التي دخلت السجل الذهبي للأغنية الشعبية اللبنانية.

كما دخل مع وديع الصافي في مهرجان "نهر الوفا"، ولحّن له من كلمات يونس الابن "ايدك بإيدي"، "كان يا ما كان"، و"يا نهر الوفا رجعنا."

كما تعاون في وضع الموسيقى لرقصات فرقة كركلا ومنها: "الخيام السود (١٩٧٨)، و"طلقة نور" (١٩٨٠)، و"حكاية كل زمان" (١٩٨٢)، و"حلم ليلة شرق" (١٩٩٢)، و"إليسا ملكة قرطاج" (١٩٩٥).

وفي معرض حديثه عن موسيقى وليد غلمية مع فرقة كركلا، يقول هنري زغيب: في "حوار عاشقَين"، وهي حوارية جميلة وضعها لإحدى مسرحيات فرقة كركلّا، طرَّزها بنكهة شرقية، يتبادل حواراتها عاشقان (مع العُود والقانون والدَّف) على إيقاع آلات النقْر المتمازجة رَفَّاتُها مع وتريات تجعل حوارَ الحب دافئًا حنونًا في حميمية اللقاء، ينتهي على إيقاع فرحٍ في زوغة الكمانات (زغيب، هنري، ٢٠٢١).

وكذلك، شارك وليد غلمية كركلا في "الأندلس: المجد الضائع"، التي عُرضت على مدرّجات قلعة بعلبك، من خلال عدّة مقطوعات موسيقية. ففي موسيقى "مشهد المعركة" و"رقصة الأمراء الأربعة"، و"مشهد المعاهدة"، و"مشهد العرّاف" في ديوان الأمير الأبيض بدا كأنّه يقطف خلاصة تجربته في العمل الموسيقي، توزيعًا، وتأليفًا، وألحانًا وميلوديات، وكتابة الجملة الموسيقية المكتملة. وفي هذا كلّه أظهر براعة وخبرة في استعمال المادة التاريخية وتحويلها مادة درامية في استعراض راقص أحاط بمروحة كوريغرافية واسعة غطّت رقص المغرب العربي بألوانه وخصوصياته ونكهاته، والرقص الإسباني، والرقص المشرقي ولا سيّما اللبناني والسوري (النهار، ٢٠١٧).

وكان لوليد غلمية محطة مع الموسيقى الشعرية، فوضع موسيقى كتاب «قوافل الزمان» شِعر توفيق يوسف عواد، موسيقى كتاب «أَنا الأَلِف» شِعر حسن عبد الله وهو للأطفال، ملحمة «القطار الأَخضر» شِعر سليمان العيسى (سوريا).

وفي أرشيفه كذلك، موسيقى تصويرية لعددٍ من الأفلام: فيلم «كفرقاسم ١٩٧٤» لبرهان علوية، فيلم «بيروت يا بيروت ١٩٧٥» لمارون بغدادي، "القادسية ١٩٧٨" لصلاح أبو سيف، الفيلم الأميركي "جواز سفر إلى أوبلفيون ١٩٦٥، الفيلم الكندي "سر الحياة".

يتبيّن لنا من هذا العرض الغنى الموسيقي عند وليد غلمية، والمروحة الواسعة من الفنون التي أغناها بألحانه، وأغنى بها المكتبة الموسيقية العربية.

٤-موسيقى وليد غلمية والقضايا العربية

لوليد غلمية أبحاث في التراث الموسيقي العربي، من لبنان إلى سوريا والعراق وليبيا، حتى قيل عنه هو المسيحي الأورثودوكسي الذي وثّق التاريخ الإسلامي بموسيقاه. اجتمع وليد غلمية بعازف العود منير بشير، وأنجز معه دراسة حول الفنون الشعبية في العراق. وهكذا، بدأ وليد غلمية يخرج من حدود الفن الشعبي اللبناني الذي ارتبط به منذ العام ١٩٦٣. لقد أوكلت إليه وزارة الثقافة العراقية العام ١٩٧٥، مهمّة إعداد دراسات عن الموسيقى العراقية، فجعلته تجربة الغوص في التراث الموسيقي العظيم يتوصّل إلى أنّه علينا الخروج من التراث الفولكلوري ضمن الأطر المحدودة إلى أعمال موسيقية كبيرة، وهكذا اتجه نحو كتابة السمفونيات المبنية على مادة موسيقية تراثية، وكانت السمفونية الأولى «القادسية» أو «سمفونية الإيمان» العام ١٩٧٦، ومعها أطلق موجة التأليف الموسيقي في العالم العربي (منصور، تريز، ٢٠١١). (الزيباوي، محمود، ٢٠١٦)

نسج وليد غلمية سمفونية "الشهيد" (١٩٨١) في تَأَمُّل وصفاء، مستقاةً من الفولكلور العراقي (وضعها بتكليف من وزارة الثقافة العراقية)، فصوّر فيها مقاطع الشجن (كأَنّها موكب تشييع جنائزي) ومقاطعَ الْتفاف ميلوديّ دائري يتكرَّر بين فاصلة وأُخرى حتى تصدح صرخاتُ الحرية مدوّيةً عاليةً إكرامًا للشهيد، في خاتمة تصاعُدية كما إطلاق أَجنحة من قيودها. كما لحّن النشيد الوطني العراقي "ارض الفراتين" من ١٩٨١ إلى ٢٠٠٣ (زغيب، هنري، ٢٠٢١).

ولفلسطين والثورة الفلسطينية حصتها من موسيقى وليد غلمية الذي لحّن العديد من القصائد والأناشيد والأغاني "نشيد الجبهة"، "نشيد الرفض"، "نشيد الثورة"، بتكليف من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. ولحّن "نشيد الفدائي» لمسرحية «مجدليون» (إخراج روجيه عساف) ١٩٦٥ (زغيب، هنري، ٢٠٢١).

وقدّم "يا زهرة النيران" قصيدة لمظفر النواب، غنتها فرقة العاشقين، فصارت من أغاني الثورة الفلسطينية الأصيلة. أعاد توزيعها الفنان الفلسطيني وليد عبد السلام ضمن ألبوم "نزلنا ع الشوارع" وأنشدتها من جديد فرقة كورال الثورة الفلسطينية (عرب٤٨، ٢٠١٨).

ثانيًا: الموسيقى الكلاسيكية عند وليد غلمية: رؤية وغنى من روح التراث

١-الموسيقى للموسيقى

يقول وليد غلمية عن علاقته بالموسيقى: "كان السؤال الملح منذ صغري: أنا كشرقي هل يجب أن أسمع أغنية طوال الوقت! سؤال بكلّ عفويته كان يتردّد في بالي، وكنت أريد أن أسمع موسيقى شرقية لا أغنية. وبعد أن أنهيت علومي الموسيقية حتى مرحلة البحث الموسيقي بقي السؤال الأهم: لماذا موسيقانا غير درامية؟ أي لا تعبر عن حالة إنسانية عظيمة؟ لماذا نربط الموسيقى بالكلمة والقصيدة، هل اللغة هي الصيغة الوحيدة للتعبير؟

وقبل إصدار اسطوانتي الأولى "من ليالينا ١٩٦٨" وضمّت إحدى عشرة معزوفه موسيقية، بدأتُ بكتابة موسيقى "الشلال" لمهرجانات بعلبك الدولية وهي أربع افتتاحيات موسيقية، كانت تُعتبر المرة الأولى التي تُقدّم فيها موسيقى صرفة في المهرجانات. ثم كانت حفلات "مهرجان بيبلوس" حيث كانت المعادلة تقديم ثلث الحفلة موسيقى وثلث غناء وثلث حوار".

ويتابع، "كان لدي مطلق الحرية في العمل على ما أريده في المهرجانات. عملي في المهرجانات جزء كبير منه تأليف وتلحين أفادني وأوصلني إلى ما أنا عليه بطريقة طبيعية ربطتني بجذوري حيث أنّ مؤلفاتي السمفونية في ما بعد وضعتُ فيها كل شرقيتي" (طه، سحر، ٢٠١١)

لا يزال وليد غلمية يؤكد، همومه الموسيقية الواضحة. فهو لا يناور في قضية التأليف الموسيقي. كما لا يناور في ما يتعلّق بروح موسيقاه. فالاوركسترالية لا تزال تشكل جوهر إبداعاته في مجالاته الحيوية، من دون أن يعني ذلك التخلي عن الخصوصية، او لنقل القومية، لأن موسيقى وليد غلمية مشرقية بامتياز. لقد ظهر ذلك من خلال إصداره شريطين ممغنطين جديدين (١٩٩٧) الأوّل بعنوان: "حجر الحظ"، والثاني بعنوان: "أثيري"، كلّ شريطٍ يحتوي على خمس عشرة قطعة بمُدَدٍ زمنية مختلفة، أقلّها دقيقتان وخمسون ثانية، وأطولها سبع دقائق وعشرون ثانية. أمّا عناوين القطع الموسيقية فهي لافتة فعلًا: همس المساء، أغنية الفضاء، تصفيق عشرة إيقاعات، ريبة، الجن، زيّاح، حبكة، حسي، نوايا... نبرة ملحمية تبدو موسيقى غلمية في الإصدارين الجديدين، مكانًا تدور فيه الأحداث عبر مجموعة من الأدوات والأفكار والأحاسيس. إنّ هذه الأخيرة تلخّص أشكال الحياة الاجتماعية والثقافية، الدافعة الى تأليفات ذات نبرة ملحمية مبطنة (جابر، عناية، ١٩٩٧).

إذن، لقد أرسى الموسيقار غلمية ثقافة السماع للموسيقى الكلاسيكية لدى شرائح توسعت يومًا بعد يوم خلال عشر سنوات، لتصبح هذه الموسيقى اليوم ضمن أجندة الكثير من اللبنانيين (طه، سحر، ٢٠١١).

٢-السيمفونيات

كان د. وليد غلمية، رائداً في تأليف أول سمفونية عربية بعنوان «القادسيّة» (سيمفونية الإيمان) عام ١٩٧٨، جسّد فيها بطولات معركة القادسية بين المسلمين والفرس (٦٢ دقيقة). " ليس هناك من سيمفونية قديمة ولا سيمفونية حديثة، يقول غلمية، فالسيمفونية هي نفسها، وربما تُكتب في زمنٍ ما، ثم تُنشر في زمنٍ لاحق، وتُكتب وتُنشر في حينه هذا أمر ليس مهمًا، فأنا ألّفت خمس سيمفونيات هي: «القادسية» و«المتنبي» و«اليرموك» و«الشهيد» و«المواقف»، وكتبتُها في أوائل سبعينات القرن الماضي، وسُجّلت تسجيلاً عاديًا، أما الآن فعمدتُ إلى تسجيلها بطريقة «ديجيتال» مع أوركسترا أوكرانيا السيمفونية، بقيادة قائد الأوركسترا الأوكراني وليس بقيادتي" (علم الدين، غسان، ٢٠١٢)

وتطرّق الموسيقي اللبناني إلى أنّه لم يؤلّف موسيقى غربية، بل موسيقى شرقية مئة في المئة ضمن القوالب الدرامية الإنسانية. ويوضح: "ما كتبته هو مادة موسيقية شرقية عربية عالجتها معالجة درامية بأسلوب الطرح والنقيض (علم الدين، غسان، ٢٠١٢). «عندما أكتب موسيقى، يقول، أكتبها من موقع مشبع بالشرقي، ولا يُمكن أن أكتب من موقع فرنسي أو روسي أو ألماني أو برازيلي. لكنّ المستمع أينما كان على الكرة الأرضية، يتذوّق العمل الموسيقي إذا كان ذا قيمة، تمامًا مثلما نتذوّق نحن الشرقيين تشايكوفسكي أو بيتهوفن وغيرهما» (منصور، تريز، ٢٠١١).

الخلاصة

إنّ الكلام عن الموسيقى مع وليد غلمية لا تنضب ينابيعه، فهو الملحّن الذي أعطى أجمل الأغنيات الشعبية اللبنانية النابعة من روح التراث لأهم المغنين اللبنانيين في الربع الأخير من القرن العشرين، وما زالت ألحانه تتربع على أثير الإذاعات، وتتردّد على كلّ شفةٍ ولسان حتى اليوم. بالإضافة إلى أنّ دوره الموسيقي في المسرح

التمثيلي والمسرح الغنائي والمسرح الراقص يزخر بعشرات الأغاني والمقدّمات الموسيقية والمقطوعات الراقصة. وفي الأفلام، موسيقى تصويرية، ومقطوعات للشعر... ولا ننسى السيمفونيات التي تأتي في مقدّمة أعماله والتي لم تخرج عن روح شرقيته وهويّته العربية في الموسيقى. وفي هذا كلّه كان غلمية مُجدّدًا، تنبع موسيقاه من سحر الأرض والتراث ومن عظمة الموسيقى الشرقية التي أغناها بعلمه ودراساته. تقول الدكتورة هبة القوّاص، قدّم وليد غلمية أجمل الأعمال التي تُوثّق التراث اللبناني، في الألحان الغنائية، في المقطوعات الموسيقية التي رافقتها أجمل الدبكات وفي السيمفونيات. وتتابع، عمل نفسه، تطوّر معها، وانتقل من جديدٍ إلى جديد (القواص، ٢٠٢٤).

التوصيات

حصل وليد غلمية على الكثير من الأوسمة المحلّية والعربية والعالمية تكريمًا لإنجازاته الموسيقية في حياته، وحصل على الكثير من احتفالات التأبين والتكريم بعد وفاته. ولكنّ المطلوب التكريم الحقيقي لعَلَمٍ من أعلام الموسيقى كوليد غلمية وذلك:

-عبر تشجيع طلاب الموسيقى والباحثين الموسيقيين على دراسة إرث وليد غلمية الموسيقي (الألحان الغنائية، المقطوعات الموسيقية، السيمفونيات)، دراسة علمية تُبيّن أهمّية ما قدّمه وما تركه للمكتبة الموسيقية العربية.

-أن تصبح موسيقى وليد غلمية جزءًا من المنهج المقرّر في المعهد الوطني للموسيقى (الكونسفتوار).

-بناءً على وصيّته، وُضع الإرث الموسيقي لوليد غلمية في الجامعة الأميركية في بيروت، لذلك على الجامعة أن تُخصِّص جائزة سنوية للموسيقى باسم وليد غلمية، وعليها أن تُقيم حفلًا سنويًا تخليدًا لذكراه تُعزف فيه موسيقاه.

المراجع

–أبوشقرا، كلود. (٠٧ ٠٦، ٢٠١٧). وليد غلمية مؤلف أول سمفونية عربية مُكرّمًا في الجامعة الأميريكية في بيروت. *الجريدة*. تم الاسترداد من https://www.aljarida.com/articles/1496757329528964400

-الزيباوي، محمود. (١١ ٠٦، ٢٠١٦). بدايات وليد غلمية. *جريدة المدن الإلكترونية*. تم الاسترداد من https://www.almodon.com/culture/2016/6/11

-النهار. (٢٨ ٠٦، ٢٠١٧). أندلس كركلا الضائع في مهرجانات بعلبك: غنى بصري وحيوية.. *النهار*. تم الاسترداد من https://www.annahar.com

-جابر، عناية. (٢٣ ٠٩، ١٩٩٧). شريطان جديدان لوليد غلمية بحثًا عن موسيقى خالصة. *السفير*(٧٨٠٣). تم الاسترداد من https://archive.assafir.com/ssr/899326.html

-حوماني، دارين. (٠٦ ٠٧، ٢٠٢٣). هالة نهرا توثّق للموسيقى الباقية فينا. *العربي الجديد-الضفة الثالثة*. تم الاسترداد من https://diffah.alaraby.co.uk

-زغيب، هنري. (١٦ ٠٤، ٢٠٢١). وليد غلمية: فصول من لبنان والعالم العربي. *أسواق العرب*. تم الاسترداد من https://www.asswak-alarab.com/archives/23058

-شعيب، مريم. (٠٢ ٠٢، ٢٠١٧). وليد غلمية-رحلة على أوتار الغروب. *أبعاد*. تم الاسترداد من http://www.ab3aad.org/page.php?CID=

-طه، سحر. (٠٩ ٠٦، ٢٠١١). وليد غلمية عاشق باخ والفلكلور العربي. *المستقبل*(٤٠٢١)، ٢١.

-عرب٤٨. (١٧ ١٢، ٢٠١٨). يا زهرة النيران-كورال الثورة. *موقع عرب ٤٨* . تم الاسترداد من https://www.arab48.com

-علم الدين، غسان. (٣١ ١٠، ٢٠١٢). وليد غلمية: التراث يحمي موسيقانا. *مجلة الموسيقى العربية*. تم الاسترداد من https://www.arabmusicmagazine.org/item/320-2020-10-13-14-06-07

-كابي لطيف. (٠٩ ٠٦، ٢٠١١). وداعًا وليد غلمية مايسترو الإبداع الموسيقي وعاشق طائر فينيق يُدعى لبنان. (وليد غلمية، المحاور) إذاعة مونتي كارلو الدولية. تم الاسترداد من https://www.mc-doualiya.com/articles/

-منصور، تريز. (٠٧، ٢٠١١). الموسيقى المعبد الأكبر-وليد غلمية. *مجلة الجيش*(٣١٣). تم الاسترداد من https://www.lebarmy.gov.lb/ar/content/

-هبة القواص. (٢٣ ٠٧، ٢٠٢٤). وليد غلمية: المجدّد. *مقابلة خاصة بالبحث أجرتها الباحثة*. (ليلى علي، المحاور)

الملخص

تتناول هذه الورقة البحثية، المعنونة "وليد غلمية: موسيقاه بنت الأرض والعلم"، الإبداع الموسيقي والتجديد الذي قدّمه الموسيقار وليد غلمية على مدى نصف قرن في كلّ أعماله: الأغنية الشعبية اللبنانية، المقطوعات الموسيقية، السيمفونيات، وكذلك إعادة تأسيسه للمعهد العالي للموسيقى والمناهج التي وضعها، إلى جانب تأسيسه الأوركسترا الفلهارمونية اللبنانية، وكذلك الأوركسترا الوطنية اللبنانية للموسيقى الشرق عربية.

ترتكز هذه الورقة البحثية على المنهج الوصفي، وتنتظم حول عنوانين:

- الموسيقى الشعبية عند وليد غلمية: تاريخ ومسيرة وتجديد.
- الموسيقى الكلاسيكية عند وليد غلمية: رؤية وغنى من روح التراث.

وتنتهي بخلاصة وتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الأغنية الشعبية اللبنانية –الموسيقى الشعبية –المقطوعات الموسيقية –السيمفونيات – التجديد الموسيقي –العلم الموسيقي.

Abstract

This research paper, entitled “Walid Gholmieh: His Music, child of Earth and Science” deals with the musical creativity and innovation presented by the musician Walid Gholmieh over the course of half a century in all his works: Lebanese folk song, musical compositions, symphonies, as well as his re-establishment of the Higher Institute of Music and the curricula that he developed, in addition to establishing the Lebanese Philharmonic Orchestra, as well as the Lebanese National Orchestra for Oriental Arab Music.

This research paper is based on the descriptive approach and is organized around two titles: Popular music according to Walid Gholmieh: history, journey, and renewal; Classical music according to Walid Gholmieh: vision and richness of the spirit of heritage. It ends with a conclusion and recommendations.

Keywords: Lebanese folk song - folk music - musical compositions - symphonies - musical innovation - musical science.